سورة الليل

سورة (الليل)، سميت بذلك، لاستهلالها بالقسم بالليل في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

ولهذه السورة مقاصد متعددة منها:

- الإيمان بالقدر وهو أحد أركان الإيمان.

- مسؤولية العبد عن أفعاله وترتب الثواب والعقاب عليها.

- إعلاء القيم المثلى، والأعمال الصالحة.

- الحط من الأخلاق الذميمة، والأعمال السيئة.

- إثبات البعث، والحساب، والجزاء.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: خلق عظيم من مخلوقات الله، يتعاقب مع النهار، على الكون.

﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾: يغطي بظلمته ما بين السماء والأرض. فهذا الليل أشبه بثوب أسود، يلقى على الأرض، فيغطيها. ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾[يس٣٧]. ثم قال على سبيل المقابلة:

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾: أي: تكشف، وظهر، وأضاء الأرض بنوره.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾: (ما) هنا، تحتمل أن تكون موصولة، بمعنى (من)، وتحتمل أن تكون مصدرية.

فإن كانت موصولة، فالله تعالى قد أقسم بنفسه، يعني: أقسم بمن خلق الذكر والأنثى. وإن كانت مصدرية فمعنى الكلام: أقسم بخلْق الذكر والأنثى، فيكون إقساما بالخلق نفسه. ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

ويؤيد هذا المعنى الثاني قراءة منسوخة؛ فإنه قد وقع في قراءة أبي الدرداء، وابن مسعود، (والذكر والأنثى). وقد نسخت بالعرضة الأخيرة على النبي ﷺ. ومعلوم أنها لا ينطبق عليها حد القراءة السبعية المعتمدة، لأن حدها كما قال الناظم:

وكل ما وافق وجه نحوِ ... وكان للرسم احتمال يحوي

وصح إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وحيثما يختل شرط اثبتِ ... شذوذه لو أنه في السبعة

والشرط الثاني: ينفي قراءة (والذكر والأنثى) لأنه لا يوافق رسم المصحف.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾: هذا جواب القسم. ومعنى (سعيكم) أي: عملكم. (لشتى): اللام واقعة في جواب القسم. (شتى) أي: مختلف، فمساعيكم مختلفة؛ فعامل بالطاعة، وعامل بالمعصية، كما هو مشاهد.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ الفاء للتفريع. يعني أعطى حق الله، أو أنفق في سبيل الله. فيشمل العطاء الواجب، والعطاء المستحب.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله، وقاية؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾: اختلف المفسرون في المراد (بالحسنى):

- فمنهم من قال إن المقصود (بالحسنى): كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

- ومنهم من قال الحسنى: الجنة، لأن الله - تعالى﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم. كما فسرها بذلك النبي ﷺ . قَالَ ﷺ «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا

أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ» ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾رواه مسلم[1].

- ومنهم من قال، وهو اختيار ابن جرير الطبري، رحمه الله: إن المراد الخلف من الله على المعطي[2]، بمعنى: أن الله ﷻ وعد المنفق بالخلف، فالذي يثق بموعود الله ﷻ فهو مصدق بالحسنى. ويشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا »متفق عليه[3].

وبين هذه المعاني الثلاث تلازم، فإن من صدق بموعود الله، مصدق بـ(لا إله إلا الله)، وهو من وراث جنة النعيم. لكن السياق يرجح ما اختاره ابن جرير الطبري، بأن (الحسنى): الخلف.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ هذا جواب الشرط. (نيسره): يعني فسنُهَيِّئُه بيسر، وسهولة. و(اليسرى) هي الجنة، أو عمل الصالحات.

وبإزاء ذلك قال الله تعالى﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ بخل بحق الله، بخل بالزكاة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما من أغناه الله، فبخل بالزكاة[4].

﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ يعني استغنى بماله، وجاهه، عن ثواب الله، كأنما قال: لا حاجة لي، وأنا عندي ما يكفيني، كما قال قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨] .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ هي النار، أو عمل الشر.

---

[1] صحيح مسلم (181).
[2] تفسير الطبري (24/467).
[3] صحيح البخاري (1442)، صحيح مسلم(1010).
[4] تفسير الطبري (24/467).

ونجد أن الله تعالى أسند هذه الأفعال إلى العباد، فهم الفاعلون لها حقيقة. وأن كان لا يخرج عن قدر الله. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً للجبرية الذين يزعمون أن العبد كالآلة، لا يفعل حقيقة، و الأشاعرة القائلون بنظرية (الكسب). وأثبات قدرة غير مؤثر يحصل الفعل عندها لا بها! وهي دعوى باطلة، غير معقولة.

قال الناظم: [٥]

مـمـا يقال ولا حقيقة عـنده معـقـولة تدنوا إلى الأفهـام

الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام

فيزعمون أن هذا كسب، وليس فعلاً للعبد حقيقة، بل هو فعل الله ﷻ وحسب! ولهذا سلبوا الأشياء خصائصها، حتى قالوا: إنه ليس في النار خاصية الإحراق، وليس في الماء خاصية الري، ولا في السكين خاصية القطع، وإنما تقع هذه الأشياء عندها لا بها! وأنكروا الحكمة والتعليل، وصاروا ضُحَكة للعقلاء.

وبالمقابل، فإن (القدرية) أنكروا القدر السابق، وزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، وجحدوا حقيقة (التيسير) المذكور في الآيات، وأتوا بنظرية (اللطف)؛ فيقولون: إن هذا التيسير هو أن الله تعالى، خلق للإنسان الأدوات، و الآلات، فقط. وأما المشيئة، فهي مشيئة العبد، دون مشيئة الرب، وأما الخلق فهو خلق العبد، دون خلق الرب. وهذا مذهب المعتزلة، ومن جرى مجراهم، من الشيعة، والخوارج .

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ يعني: ما يغني عنه ماله الذي افتخر به، واستطال، إذا هوى، وسقط في النار، وقيل بمعنى مات، من قولهم: ردى الرجل. ولكن استبعد بن جرير، رحمه الله، هذا المعنى؛ قال: لأن العرب لا تستخدم تردى إلا في التعبير عن السقوط من شاهق .

---

[٥] منهاج السنة النبوية (459/1).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني: بيان طريق الهدى. فهذا مما أوجبه الله – تعالى – على نفسه؛ أن يبين للناس طريق الحق، وطريق الباطل، طريق الهدى، وطريق الضلال. وهذه هداية دلالة، وبيان، وإرشاد.، وهي إقامة الحجة الرسالية .

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: لنا ملك الآخرة، والأولى، نهبها من نشاء، ونمنعها من نشاء، حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: خوفتكم، وحذرتكم؛والنذارة هي الإعلام بما يسوء.

﴿تَلَظَّىٰ﴾ أي: تتلهب، وتتوهج، وتتوقد. وقد أوقد عليها لآلاف السنين، حتى صارت سوداء مظلمة. وهي موجودة الآن، تنتظر أهلها.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾أي: لا يدخلها، ويقاسي حرها، فتشويه، إلا الأشقى. (الأشقى) أي: البالغ في الشقاوة أقصاها. وهو الكافر. ولهذا وصفه الله، تعالى، بقوله : ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ كذب بنبيه ﷺ ، وتولى عن طاعته. وهذا ينطبق على كثير ممن كان النبيﷺ ، بين ظهرانيهم من المشركين .

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ أي: يبعد عن تلكم النار التي تلظى. و(الأتقى) بمقابل (الأشقى)، لأن (الأتقى) هو من بلغ الغاية في التقوى. وقيل إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديقﷺ ؛ لأنه وصفه بقوله﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: يتطهر.فقد كان أبو بكر الصديق ﷺ يبذل ماله في سبيل الله، يريد تطهير نفسه. ولا شك أن أب ا بكر الصديق ﷺ يدخل دخولاً أوليًا في هذه الآية، لكنها تنطبق على كل من بذل ماله، يريد تزكيه نفسه، وتخليصها من آفة الشح، ومن الذنوب، ويريدها كفارة لما بدر منه، فإنه يدخل في عموم هذه الآية. والقاعدة عند المفسرين: [العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب] فحتى لو نزلت الآية في فلان أو فلانة، فإنها لا تختص به، بل تنسحب على جميع من شابههم في الحال.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾أي: أن أبا بكر، وغيره من المحسنين الصادقين، لا يفعلون هذا الإحسان ليكافئوا نعمة سابقة، ويقابلوها بمثلها .

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾(إلا) هنا بمعنى لكن. فالاستثناء منقطع؛ أي: لكنه فعل ذلك طلبًا للمذكور، وهو﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾. فدل على أن ذلك (الأتقى) بذل ماله، وأنفقه، رغبة في لقاء الله، تعالى، والتنعم بالنظر إلى وجهه الكريم، ورجاء ما يحصل له من ثواب الله .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ هذا وعد من الله ﷻ أن يرضيه، والله لا يخلف الميعاد.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: الإقسام بدلائل الربوبية.

الفائدة الثانية: تفاوت الخلق في مسعاهم .

الفائدة الثالثة إثبات القدر السابق.

الفائدة الرابعة: إثبات أفعال العباد، والرد على الجبرية.

الفائدة الخامسة: الرد على القدرية، وذلك بإثبات التيسير.

الفائدة السادسة: إثبات الحكمة والتعليل.

الفائدة السابعة: إثبات الأسباب فمن أنكرها، فهو مناقض للعقل، والفطرة، والدين.

الفائدة الثامنة انتفاء الشفاعة عن الكافر. قال الله تعالى:﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾فإذا كان ماله الذي يختص به، لا يغني عنه، فلأن تكون شفاعة الشافعين، لا تغني عنه، من باب أولى.

الفائدة التاسعة: إثبات هداية الدلالة، والبيان.

الفائدة العاشرة: إثبات ملك الله الشامل لكل شيء.

الفائدة الحادية عشرة: التحذير من النار .

الفائدة الثانية عشرة: الموعظة بالنار.

الفائدة الثالثة عشرة: نجاة المؤمن من النار.

الفائدة الرابعة عشرة: فضيلة التقوى .

الفائدة الخامسة عشرة: أن الأعمال الصالحة سبب للتطهر، وزيادة الإيمان.

الفائدة السادسة عشرة: أن العمل من الإيمان.

الفائدة السابعة عشرة: فضيلة الإخلاص .

الفائدة الثامنة عشرة: حسن موعود الله للمؤمن.